دراسة نصية في رائية العطوي يشكو فيها الزمان

إعداد

د. امينة عبد المولى حراحشة

مركز اللغات – الجامعة الهاشمية – الزرقاء– الأردن

المجلة العلمية ـ جامعة دمياط

العدد 67 يوليو 2014

المقدمة:-

تتناول الباحثة نصاً شعرياً ينتمي إلى العصر العباسي الثاني بعنوان (قراءة نصية في رائية العطوي) وقد تناولت في البداية التعريف بالشاعر المغمور العطوي من خلال المصادر الأدبية التي أشارت إلى حياته ونسبه، ومن ثم تناولت قراءة موضوعية وفنية للقصيدة ، وقد عرضت لآثار الفقر على حياة الفرد في المجتمع وكذلك أثاره النفسية من جهة أخرى ، وكشفت عن جماليات النص من حيث التصوير أو الإيقاعات الموسيقية ومحاولة ربطها بالنص .

اختارت الباحثة النص للإضاءة على صاحبه من جهة ولكونه يمثل اتجاها من اتجاهات الشعراء لنقد للظواهر الاجتماعية السائدة وأبرزها ظاهرة الفقر .

وقد اعتمدت الباحثة عدة مصادر أهمها طبقات الشعراء لابن المعتز ، وتاريخ للطبري ، ومعجم الأدباء لياقوت وشعراء بصريون لمحمد جبار المعيبد ، تجدر الإشارة _هنا _ إلى أن النص لم يدرس من قبل وهذا جعل مصادره شحيحة فاعتمدت الباحثة على استنطاق النص وتكوين مادة البحث.

وأخيرا الخاتمة عرضت أهم نتائج البحث .

- رائية العطوي يشكو فيها الزّمان :

العطوي شاعر عباسي العصر، بصري المولد والمنشأ، كناني الولاء، معتزلي العقيدة. عاش في فترة ذهبية من العصر العباسي، وعاصر في بلده أشهر علمائه من شعراء وكتّاب ومتكلمين، فنهل من علومهم وتلقى عنهم. وحين بلغ مبلغ الرجال لم يجد حظاً في بلده فارتحل عنه إلى مركز الخلافة، وتقرب هناك من ذوي النفوذ بعلمه وأدبه، ولكنه مع هذا لم يحصل على بغيته التي ارتحل من أجلها والمكانة التي يريد الوصول إليها، وهكذا يعيش بقية حياته فقيراً مملقاً حتى وفاته [1].

---

[1] محمد جبار المعبيد: شعراء بصريون، ص7.

ترجم له ابن المعتز في طبقات الشعراء، ولم يذكر نسبه بل اكتفى بكنيته ولقبه [1] أما من جاء بعده فاتفقوا على أن اسمه (محمد) لكنهم يختلفون في ذكر اسم أبيه، فمنهم من يقول: (محمد بن عطية) [2]، وقيل (محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطيه) ومنهم [3] من يكتفي بقوله: (محمد بن عبد الرحمن بن أبي عطية) أما كنيته (أبو عبد الرحمن) فلم يختلف أحد فيها.

يتضح من قراءة ما وصل من شعره أنه كان فقيراً مملقاً، كثير الشكوى من الفقر والحرمان من الحياة المرفهة التي كان يعيشها غيره من العلماء، والجاه و ذوي الحظوة التي كان يجدها هؤلاء العلماء من الخلفاء والوزراء، كما ذم الزمان واشتكى الأصدقاء وأكثر من معاقبتهم.

وأزاء هذا الفقر أهمل الاهتمام بمظهره ونظافته، وتنبه إلى قيمة المال فقتر على نفسه حتى وصف بالبخل والتقتير [4].

لذا يصلح العطوي أن يكون نموذج الشاعر الفقير الرافض مظاهر فقره وحياته البائسة، لكن رفضه جاء على نمط الشكوى من الزمان، ولعله لم يمتلك الجرأة الأدبية للرفض المباشر وإدانة الدولة لما هو فيه من ضيق وفقر وتدهور حياة عامة الشعب، من طبقته فأخذ يشكو الزمان ويعاتب الأصدقاء، مبرزاً ملامح حياته البائسة، في قصائد شعرية تتسم بالقصر، وإخراج المعنى ببساطة وشفافية بعيداً عن التكثيف الشعري أو التعقيد، فيقول[5]:

مَـــنْ رَمَـــاهُ الإِلَـــهُ بالأَقْتَـــارِ وَطِلابِ الغِنَى مِـنَ الأَسْـفَارِ

هُـــوَ فِـــي حيْـــرَةٍ وَضَـــنْكٍ وَإِفْـــلا سٍ وَبُؤْسٍ وَمِحْنَـــةٍ وَصَـــغَارِ

---

(1) ابن المعتز: طبقات الشعراء، ص395.

(2) الطبري: تاريخ بغداد، 137/3.

(3) الأصفهاني: الأغاني 123/23/ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 39/6.

(4) الأصفهاني: الأغاني 124/23.

(5) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، 10/5.

يَــا (أبَــا القَاسِــمِ) الَّــذِي أَوْضَــحَ الجُــو دُ إِلَيْــهِ مَقَاصِــدَ الأحْــرَارِ

خُــذْ حَــدِيثِي فَــإِنّ وَجْهِــي مُــذْ بَــا رَزَ هَذا الأَنامَ فِي ثَوْبِ قَــارِ

وَهْــوَ للسَّــامِعِيْنَ أَطْيَــبُ مِــنْ نَفْــ ــحِ نَسِيْمِ الرِّيَاضِ غِبَّ القِطَارِ

هَجَــمَ البَــرْدُ مُسْــرِعَاً وَيَــدَي صِفْــ ــرٌ وَجِسَمِي عَارٍ بِغَيْرِ دِثَــارِ

فَتَسَــتَّرتُ مِنْــهُ طُــولَ التَّشّارِيــ ــنِ إِلَى أَنْ تَهَتَّكَتْ أَسْــتَارِي

وَنَسَــجْتُ الأَطْمَــارَ بِــالخَيْطِ وَالإبْــ ــرَةِ حَتَّى عَرِيْتُ مِنْ أَطْمَارِي

وَسَــعَى القَمْــلُ مِــنْ دُرُوزِ قَمِيْصِــي مِنْ صِغَارٍ مَا بَيْــنَهُمْ وَكِبَــارِ

ج

يَتَسَــارَعُونَ فِــي ثِيَــابِي إِلَــى رَأْ سِي قِطَارَاً تَجَوَّلَ بَعْدَ قِطَــارِ

ثُــمّ وَافَــى كَــانُونُ وَاسّْــوَدَ وَجَهِــي وَأَتَانِي مَا كَانَ مِنْــهُ حِــذَارِي

لَــو تَأَمَّلْــتَ صُــوْرَتِي وَرُجُــوْعِي حِيْنَ أُمْسِي إِلَى رُبُوعٍ قِفَــارِ

أَنَــا وَحْــدِي فِيْــهِ وَهَــلْ فِيْــهِ فَضْــلٌ لِجُلُــوسِ الأَنِــيْسِ وَالــزُّوّارِ

والخَــلا لا يُــرَادُ فِيْــهِ فَمَــا لِــي أَبَــداً حَاجَــةٌ إِلَــى الحَفَّــارِ

بَـــلْ يُـــرَادُ الخَـــلا لِمُنْحَـــدَرِ النَّجْـــــ ــوِ وَمَا ذُقْتُ لُقْمَةً فِي الــدّارِ

وَإِذَا لَـــمْ تُـــدِرْ عَلَـــى المُطْعِـــمِ الأَفْـــــ ــوَاهِ سُدَّتْ مَثَاعِبُ الأَحْجَـارِ

يضعنا العطوي منذ مطلع القصيدة أمام ثنائية ضدية تمثل ظاهرة اجتماعيـة في عصره، وهي ثنائية الفقر والغنى، حيث تنعم طبقة من المجتمع بأثواب السـعادة والهناء، وقد توفر لها كل ما تطمح إليه من قصورٍ وجوارٍ وثيابٍ فـاخرة، وطعـام وشراب مختلف أصنافه، بينما تعيش طبقةٌ أخرى حياة شقاء وتعاسة، حيث البـؤس والحرمان، والفقر والجوع، لا مأوى يجمع أفراد أسرتها، ولا ثياب تستر أجسـادهم، أما الطعام والشراب –فإن وجد– فهو مقصور على صنفٍ واحدٍ من دقيق الحنطة أو الشعير.

ويقرر الشاعر بأن الفقر وضيق العيش أمرٌ مقدَّرٌ مـن عنـد الله، يصـيب البعض ويتجاوز آخرين، وتوحي كلمة (رماه) بمعناها الدلالي بأن الفقـر لا يشـمل الأغلبية كما توحي بأنه أمرُ خارج عن رغبة وإرادة الإنسان أو اختياره، وليجعلـه أكثر قبولاً في نفس الإنسان أو رضا به أسند الفعل (رمى) إلى القوة الإلهية ليكـون مصدره من عند الله فتقنع النفس وترضخ له وتتحمل مشقته.

ثم يكشف عن حقيقة جوهرية في نفس الإنسان، وهي حبّه للمال وسعيه الدائم للحصول عليه ، سواء أكان فقيرا أم غنيا ، فالمال دائما مطلوب والإنسان طالب له، وهذا ما تكشفه كلمة (طِلاب) من سعي دائم نحوه ورغبة شديدة في الحصول عليـه، ولذا فهو يستدعي السفر في كثير من الأحيان لا سيما فاقدهُ، وقد وظَّف الشاعر كلمة (الأسفارِ) بصيغة الجمع لتدل على أن طلب المال يستوجب السفر مراراً وتكـراراً، كما تدل على المشقة والمعاناة التي يجدها الإنسان في سفره من تعـبٍ جسـدي أو غربةٍ عن الأهل والوطن.

ولو تأملنا كلمة (الأسفار) لوجدناها تتألف من أربعة مقاطع صوتية طويلـة، يبدأ كل مقطع متحرك وينتهي بساكن (أَلْـ– أَسْـ– فَاْ– رِيْ) وهذه الحركـة التـي

تنتقل من حركةٍ إلى سكون تماثل حركة المسافر الذي ينتقل من مكان ليستقر قليلاً في مكانٍ آخر، فلا يجد مبتغاه فيضطر إلى الحركة مرة أخرى والانتقال إلى مكانٍ آخر آملاً أن يجد رزقه وهكذا. وهذه حال شاعرنا الذي تنقل كثيراً من مكانٍ إلى آخر ليحصل على الرزق والحظوة التي يتمناهما ثم نجد الشاعر وكأنه باحث اجتماعي يتبين الآثار السلبية للفقر والسفر –طلباً للمال– فيقول:

مَنْ رَماهُ الإلَــهُ بِالأَقْتَــارِ وَطِلابِ الغِنَى مِنَ الأَسْفَارِ

ج

هُوَ فِي حيْرَةٍ وَضَنْكٍ وَإِفْلا سٍ وَبُؤْسٍ ومِحْنَةٍ وَصَغَارِ

إنّ أولى آثار الفقر وتكلف السفر الوقوع في الحيرة، والحيرة مردها التفكير المستمر من قبل المرء أو ربّ الأسرة في كيفية تأمين لقمة العيش والمتطلبات الأساسية لأبنائه، ثم القلق بشأن أفراد أسرته في غربته وسفره، فهو يعيش حالة من عدم الاتزان والتوتر النفسي بين الواقع والمستقبل، بين المعلوم والمجهول، فحاله وحال أسرته تستدعي القلق وتجلب الغم والحزن، والسفر يستدعي القلق كذلك، القلق على الأهل والأولاد في حال غيابه، فضلاً عن مخاوف السفر ومشقته، إن معاناته لا تنقطع وتفكيره مستمر، وهمومه لا تزول.

ومن الآثار السلبية –أيضاً– للفقر الشعور بالضنك؛ إذ يجد رب الأسرة نفسه عاجزاً عن أداء دوره في إدارة شؤونها وتدبير أمورها، فحق القوامة التي أوكلت إليه تشغل بالهُ، وتجعله في ضيقٍ وهمٍ، لمعاناته الشخصية ومعاناة أفراد أسرته من آثار الفقر، بينما النفسي فيتجسد في معاناة الآخرين من أفراد أسرته وعجزه وربما فشله –من منظوره ومنظورهم– في تأمين أسباب الحياة الكريمة لهم.

ويُعد الإفلاس أحد آثار الفقر، إذ تتراكم الديون، وتجوع الأسرة وتعرى، وقد تفتقد إلى المأوى، –وإن وجد– فهو في حالة يُرثى لها، من تداعي أركانه، وتشقق جدرانه، حتى أن الفئران لتهجره لقسوة الحياة فيه.

كما أن قلة الطعام والشراب، ورثاثة الثياب، وسوء المسكن، وكثرة الديون، والإفلاس، كل هذه من شأنها أن تولد البؤس، وتزرع الحقد والكره في قلوب الفقراء حينما يجدون غيرهم يرفل بأثواب النعيم، يأكلون أشهى الأطعمة، ويلبسون أفخر أنواع الحرير، ويسكنون القصور، على الرغم بأنهم لا يفوقونهم علماً أو حكمة أو أدباً.

على أن شعور الأديب بالغربة وكساد أدبه لا يقل أهمية عن هذه الآثار، إذ يشعر بأن الزمان غير زمانه، وأن الأدب بضاعة كاسدة في زمن اللهو والمجون وفي زمن الطبقية الممقوتة، إنه شعور بالمحنة حيث لا يجد المرء مكانته الحقيقية في مجتمعه، ولا يستطيع أن يحفظ وجوده الأدبي الذي كان يحظى به في الزمن الماضي، وهذا يضطره أن يستعطف، ويستجدي أصحاب الجاه والمناصب، والأثرياء من مجتمعه، وقد لا يجد جدوى من استعطافه واستجدائه، فيشعر بالذل والصغار.

وكل هذه الآثار السلبية المترتبة على الفقر من شأنها أن تولد الألم والحسرة والوجع في نفس الإنسان الفقير، وقد أوحى تنوين الكسر في هذا البيت بهذا الشعور، فقد جاءت الكلمات الستة منوَّنة (حيرةٍ- ضنكٍ- إفلاسٍ- بؤسٍ- محنةٍ- صغار) إذ يتوالى الإيقاع ذاته لكلمات تحمل مدلولاً يجمع الحزن والألم.

ويشكل البيتان مقدمة تمهيدية للانتقال إلى غرضه الشعري وهو الاستجداء، وقد وجه خطابه إلى (أبي القاسم) الذي ربما يكون أحد أصدقائه الأثرياء، أو من المسؤولين الذين يسعى إلى التقرب إليهم ونيل عطائهم، فيقول:

يَا (أَبَا القَاسِمِ) الَّذِي أَوْضَحَ الجُو دُ إِلَيْهِ مَقَاْصِدَ الأَحْرَارِ

خُذْ حَدِيْثِي فَإِنّ وَجْهِي مُذْ بَا رَزَ هَذا الأَنَامَ فِي ثَوْبِ قَارِ

وَهْوَ لِلسَّامِعِيْنَ أَطْيَبُ مِنْ نَفْـ ـحِ نَسِيْمِ الرِّيَاضِ غِبَّ القِطَارِ

ينتقل العطوي إلى غرضه الشعري عن طريق أسلوب الالتفات، إذ ينتقل من ضمير الغائب (رماه) إلى ضمير المخاطب (خُذْ)، وموظفاً- أيضاً- أسلوب النداء، واستخدام الأداة (يا) للقريب والبعيد، وهو يريد بأن أبا القاسم شخصاً قريباً، خبره عن قُرب، وسبق أن جرّبه في الأيام العصيبة، فذاق حلاوة عطائه، ويطمع في المزيد.

ويبدو أن العطوي قد سأم الناس وعافهم، إذ لم يجد منهم مَنْ يُسانده في أيام شدته ومحنته، فانقطعت علاقته بهم، وسد تجاههم الأبواب وأبقى على صلته بأبي القاسم، فهو الصديق المؤمل به، والمرجو صلته.

وقد استخدم التصوير الفني ليعبر عن محنته وشعوره آزاء أولئك الذين خذلوه وتركوه يصارعُ قدره وحيداً، فقد صور وجهه وقد اكتسى ثوباً من القار، والقارُ مادة نفطية سوداء، وهنا تبرز أهمية الألوان ودلالتها، إذ يرتبط لون القار بنفسية الشاعر الحزينة المشحونة بنظرة سوداوية لمن حوله من الناس ولواقعه المظلم.

وبعد ذلك ينتقل العطوي إلى شرح أحوال معيشته، وظروف حياته القاسية، ليرق قلب أبي القاسم ويجزل عطاءه، فيقول:

هَجَمَ البَرْدُ مُسْرِعَاً وَيَدَي صِفْـ ـرٌ وَجِسْمِي عَارٍ بِغَيْرِ دِثَـارِ

فَتَسَتَّرتُ مِنْهُ طُـولَ التَّشّارِيـ ـنِ إلى أنْ تَهَتَّكَتْ أَسْـتَارِي

وَنَسَجْتُ الأَطْمَارَ بِالخَيْطِ وَالإبْـ ـرَةِ حَتَّى عَرِيَتُ مِنْ أَطْمَارِي

وَسَعَى القَمْلُ مِنْ دُرُوزِ قَمِيْصِي مِنْ صِغَارٍ مَا بَيْـنَهُم وكِبَـارِ

ج

لعل معاناة الفقراء من عامة الناس تزداد في فصل الشتاء، إذ يحتاجون إلى وسائل تدفئة، وطعام يبعث الدفء في أوصالهم، ولباس يقي أجسادهم برد الشتاء، وبيوت محكمة تقاوم المياه الداهمة.

إنها متطلبات تشكل هاجس كل رب أسرة فقيرة، والعطوي واحدٌ من أولئك الذين يشغلهم ذلك الهاجس، إذ إنَّه لا يملك قوت أطفاله، ولا يجد ما يدثرهم به في البرد القارص.

ويدل الفعل الماضي (هجم) على شدة تخوفه من أيام الشتاء، فالفعل بمدلوله يبعث معاني الخوف، والمواجهة، والصراع، فضلاً عن إيقاعه الموسيقي المتمثل بتفاوت مخارجه وتجاور أصواته، فهو إيقاع يوحي برنين أجراس الخطر القادم، الذي يأتي به فصل الشتاء، ولعل فصل الشتاء فصل تتعطل فيه حركة العمال، كالحمالين، والحفارين، وأولي العمل البدني، كما أنه فصل الذخر والادخار، أما العطوي فرصيده من الذُخر والادخار صفرُ.

وتحمل كلمة (صِفْرٌ) دلالة معنوية ولفظية، إذ إنَّها تدل على قيمة رقمية لا أهمية لها، فهي تعني الخواء والعدم واللاوجود ، كما تبعث أصوات حروفها المعنى السلبي نفسه من خلال حرف الصاد والفاء والراء، فالصاد صوت فيه معنى التنبيه، والفاء يوحي بالتأفف والضجر، أما الراء فيوحي بالاهتزاز وعدم الاستقرار، فضلا عن تنوين الضم الذي يوحي بالأنين والألم.

ولو تأملنا اسم الفاعل (مُسْرِعاً) لوجدناه يعطي معنى الحركة السريعة المُضادة للحركة البطيئة، ومع أن السرعة تحمل الدلالتين الإيجابية والسلبية إلا إنّ العطوي لا يجد إلا الدلالة السلبية ويتمنى ما يقابلها من حركة، لأنه لا يملك حركة توازيها أو قيمة رقمية تتصدى لهذه السرعة، فقيمة (صفر) لا تمنحه المقاومة.

وتتفاقم مصيبة الشاعر وتضمحل مقاومته أزاء عري جسمه، وبالتالي فهو يفتقد إلى أحد أهم مقومات الحياة ومتطلباتها وهي الملبس، وتتناسب دلالة عري الجسم من الملبس مع دلالة (صفر)، وتتناسب معها كذلك في إيقاعها الموسيقي فحرف العين في كلمة (عارٍ) يُوحي بالتوجع بالإضافة إلى اتصاله بحرف المد (عا)

الذي يمكنه من إطلاق آهاته المكبوتة، وأخيراً حرف الراء المنون بتنوين الكسر بدلالته التي تجمع القلق والتوتر إلى جانب الأنين والألم.

قد اتخذ الشاعر شهر تشرين ستراً ووقاية من فصل الشتاء، ويبدو أنه يسكنه القلق، ويشغله تعري جسمه، فيحاول ستر عورته بغير المعهود، إنه يتستر بالزمن ضد الزمن، ولو تأملنا قوله (طول التشارين) لوجدنا أن كلمة (طول) توحي بالامتداد والاتساع، وهذا يعني أن حالته شبه دائمة لا عارضة أو طارئة، وهذا ما يؤكده جمع (تشرين) إلى جانب الدلالة المعنوية للفعل (تهتّكتْ) الذي دل على المبالغة في الإزالة وكشف العورة وهو يقابل الفعل (تسترتُ).

وتتضح مقاومة الشاعر وفاعليته أزاء البرد والجوع من خلال إسناده الأفعال إلى ضمير المتكلم (تستِّرتُ- نسجتُ) فالشاعر يحاول أن يقاوم أسباب تعاسته ومعاناته، لكنها مقاومة ضعيفة إذا ما قيست بالأفعال المسندة إلى غيره من الضمائر والأسماء (هجم البردُ- تهتكت أستاري- سعى القمل- يتساعون....الخ).

إن ثياب الفقراء من الناس تحكي قصتهم في هذه الحياة، من خلال رقتها، أو بهاتة ألوانها، أو قصرها أو كثرة رقعها، فضلاً عن فرديتها، إذ لا يملك أحدهم ثوباً آخر بديلاً عن ثوبه اليتم.

وهذه حال العطوي الذي يحاول أن يستر جسده بأثوابه الخلقة البالية، إذ يحاول أن يصلح شقوقها، ويرتق فتوقها بالخيط والإبرة (نسجتُ أطماري) وكأن هذه الشقوق والفتوق اتسعت حتى اشتملت الثوب كله فأخذ بالنسيج، وكأنه يصنع الثوب من جديد، كما تتناسب دلالة (أطماري) مع السياقات السابقة التي تدل على الكشف والعورة، فالفعل (طمر) معناه المعجمي ستر الشيء حيث لا يُدْرى، لكنها محاولة فاشلة لأن ثيابه البالية شهدت مرات عديدة من إصلاح شأنها، وتآكلت خيوطها، حتى أصبحت في غاية الوهن والضعف ولا يمكنها ستر عورة صاحبها.

ويدل الفعل (عريتُ) على الضعف والتجرد، فالشاعر يعلن ضعفه أمام متطلبات الحياة، وتجرده من أبسط مقوماتها كما يختلف عالم الأغنياء عن عالم الفقراء في نمط معيشتهم، من حيث المسكن والملبس والمأكل، فإذا كان الأغنياء

يلبسون أفخر أنواع الفراء المستوردة، والحرير الموشى بالذهب، فإن لباس الفقــراء أطمارٌ شاحبة، وإن كانت قصور الأغنياء تسكنها الطيور المغردة والحيوانات الأليفة فإن بيوت الفقراء تملؤها الفئران والحيوانات القارضة، ورؤوسهم يسكنها القمل، وهو –القمل– حشرة غالباً ما تلازم انعدام النظافة الشخصية أو تدهور الحالة الاجتماعية ليصبح مرضاً يحتاج إلى العلاج والوقاية (فهو يتواجد عادة في الأحياء الفقيرة).

إن إصابة الشاعر بالتَّقمل علامة دالة على فقره وسوء حاله، كما يبــدو أن فقره يبلغ درجة شديدة يمتد من الماضي البعيد وحتى الحاضر، وهذا ما يوحيه الفعل الماضي (سعى) والفعل المضارع (يتساعون) الذي يدل على كثرة أعداده من جهة واستمراريته من جهة أخرى.

ولو تأملنا البيت الشعري:

وَسَعَى القَمْلُ مِنْ دُرُوزِ قَمِيْصِي مِنْ صِغَارٍ مَا بَيْــنَهُم وكِبَــارِ ج

لوجدنا أن التركيب اللغوي (من دروز قميصي) يوحي بمعانٍ عديدة، فالفقر ومظاهره يتخلل حياة الشاعر من كل الاتجاهات، كما يوحي بشعور الضيق وشــدة المعاناة الناجمة عن الفقر (دروز) ويفهم القارئ من خلال هذا التركيب اللغوي بــأن قميص الشاعر مهترئ وبالٍ فدرزوه اتسعت لتسمح للقمل بالســعي والتكــاثر مــن خلالها.

أما التركيب اللغوي (من صغار ما بينهم وكبار) فيدل على طــول تعــايش الشاعر مع القمل، فضلاً عن كثرته وتكاثره (صغار– كبار) وهذا ما يؤكده الطبــاق الوارد هنا، فالشاعر على معرفة جيدة به صغيره وكبيره.

ويلفت النظر في هذه الأبيات نوع الحركة التي تــوحي بالســرعة (هجــم– مسرعاً) وبالتردد (سعى– يتساعون) لتتلائم مع المعنى وتسانده؛ فالبرد محط مخاوف وقلق بالنسبة للشاعر (هجم البرد) والقمل يملأ ثيابه منذ زمــن بعيــد ومــا زال ، ويستعير الشاعر حركة القطار وشكله الطويل ليكشف عن معاناته وامتدادها، فالقمل يسعى حتى يصل رأسه مشكلاً قطاراً يتلو قطار (قطاراً تجول بعد قطار).

وتتناسب الألوان مع الأشكال والصور لدى الشاعر فالقمل يتناسب لونه مع لون القطار، وحركة القمل في صفٍ منتظم تناسب حركة القطار المتتابعة والمنتظمة.

لم يفلح الشاعر في محاولاته للتصدي ضد البرد وتستره منه بالزمن (التشارين) ولا إصلاح ثيابه (نسجتُ الأطمار) لأن حركة الزمن ودورانه أقوى من قدرة الشاعر وخارجة عن إرادته ورغباته، فقد جاء فصل الشتاء في موعده، فيقول:

ثُمّ وَافَى كَانُونُ وَاسْودَّ وَجْهِـي وَأَتَانِي مَا كَانَ مِنْهُ حِذَارِي

لقد وصل الشتاء (وافى كانون) في موعده وكان وفياً في وعده، وتحققت مخاوف الشاعر وهواجسه.

ولو تأملنا هذا النص الشعري لوجدنا اللون الأسود يشغل مساحات كثيرة منه (القمل- قطار- أسودّ) وهو لون يعكس نفسية الشاعر السوداوية وشعوره بالحزن والقلق والخوف، كما أنه لون يبعث على التشاؤم.

يمثل الشاعر الإنسان الكادح المعدم الحال، الذي يفتقد إلى أسباب السعادة أو أبسط ما يحتاج إليه الإنسان، وعلى الرغم من ذلك فالشاعر لا يرضى بالاستسلام أو انتظار الموت والفناء بل نجده يصارع الحياة ويبحث عن رزقه وقوت يومه، فيخرج منذ الصباح الباكر آملاً في الفرج والخير لكنه يعود صفر اليدين، فيقول:

لو تَأَمَّلْتَ صُوْرَتِي وَرُجُـوعِي حِيْنَ أُمْسِي إِلَى رُبُوعٍ قِفَـارِ

أَنَا وَحدْي فِيْهِ وَهَلْ فِيْهِ فَضْـلٌ لِجُلُوسِ الأَنِـيْسِ وَالـزُّوّارِ

وَالخَلا لا يُرَادُ فِيْـهِ فَمَـا لِـي أَبَـدَاً حَاجَـةٌ إِلَـى الحَفَّـارِ

بَلْ يُرَادُ الخَلا لِمُنْحَـدَرِ النَّجْـ ـوِ وَمَا ذُقْتُ لُقْمَةً فِي الدّارِ

وَإِذَا لَمْ تُدِرْ عَلَى المُطْعِمِ الأَفْـ ـوَاهِ سُدَّتْ مَثَاعِبُ الأَحْجَارِ

إن معاناة العطوي لا تقف عند حد الفقر بل يُضاف إليها الوحـــدة، لتصـــبح معاناة معقدة، إذ ربما كان الحضور الإنساني حوله وفي منزله يخفف وطأة المعاناة لكنه في لحظة ما يشعر بأنه إنسان مسحوق بين دفتي الفقر والوحدة، فالربوع المقفرة التي يشير إليها تحتمل المعنين، خلو دياره من الرزق والقوت وخلوها من الأنـــيس والجليس، أو الأهل والولد، وقد صرح بوحدته في الجملة الخبرية (أنا وحـــدي) ثـــم يوظف الاستفهام الإنكاري (وهل فيه فضلٌ لجلوس الأنيس والزوار) ليبين لنـــا أنـــه يعاني بشدة من الفقر والوحدة في آن معاً، كما نلمح في هذا السياق رؤيـــة فلســـفية وهي أن الإنسان كائن اجتماعي لا يمكنه أن يعيش بمفرده معزولاً عن أقرانه مـــن البشر.

ولو تأملنا الإيقاع الموسيقي في هذا النص الشعري لوجدناه يمضـــي علـــى وتيرة واحدة، إذ إنَّ الشاعر يبدو شاكياً زمانه ومستعطفاً أبا القاسم لنيل عطائه، فهو وإن يرفض ما كان يجري في مجتمعه من تفاوت طبقي، ويبين حالة الطبقة الكادحة من مجتمعه إلا إنَّه لا يملك سبيلاً للرفض سوى الشكوى والتذمر. فأصوات الأنـــين والوجع والآهات لا تغادر بيتاً من أبيات القصيدة، والحزن والبؤس لا يفارق الشاعر أبداً.

ويبين الشاعر مدى حرمان الطبقة الفقيرة التي تنتظر لقمة تســـد جوعهـــا، فيوظف أسلوب النفي (وما ذقت لقمة في الدار) ليشير إلى حرمانها الطعـــام مطلقـــاً حتى تكاد تفقد حاسة التذوق (وما ذقت) ، وهو يمثل عمق معاناة تلك الطبقة وشدة نقمتها على الطبقة المترفة التي تنعم بحياة رغيدة .

ويسبغ على أبي القاسم الصفات الإيجابية ويجعله مصدر الأمـــل والرجـــاء وذلك من خلال صيغة اسم الفاعل (المُطعم) والصورة الفنية (إذا لم تدر على المطعم الأفـــواه سُدّت مثاعبُ الأحجار) إذ يصور أفواه الفقراء الجياع بالمثاعب (والمثاعب هي مجاري المياه) وأبا القاسم المطعم الذي يسد بعطائه تلك المثاعب.

ويوحي الفعل المضارع (تُدِر) بحركة دورانية مستمرة، وكأنّ معاناة هؤلاء الفقراء لا تنقطع، كما يوحي بأن المطعم هو المركز والأساس والفقراء الجياع يتبعون مطعمهم وينقادون إليه، ويجرون في مساره، كما توحي صيغة الجمع في (الأفواه- مثاعب- أحجار) باتساع شريحة الفقراء وكثرتهم في المجتمع آنذاك.

الخاتمة :

تناولت الدراسة صورة المجتمع العباسي فى القرن الثالث الهجرى ، وبينت ملامح الحياة الاجتماعية من خلال نصٍ شعري لشاعر مغمور وهو العطوي وهي قصيدة رائية تكونت من ستة عشر بيتاً ، ومثلت موقف الشاعر العباسي آنذاك – من السلطة من جانب ومن مجتمعه من جانب آخر ، إذ يعرض الشاعر للتباين الطبقي المجتمعي ويسلط الضوء على الطبقة الفقيرة وما تعانيه من ضيق وشح وعوز.

وهو في قصيدته يرسم صورةً متكاملة الملامح لحياة الطبقة الفقيرة من حيث المسكن والملبس والمأكل ، وكأنه يوجه سهامه إلى المسؤولين في عصره للالتفات إلى تلك الطبقة البائسة وحقها في توفير أسباب العيش الكريم.

وقد وظف الشاعر الصور الفنية والإيقاعات الموسيقية لبلوغ غايته التي يرمي إليها من قصيدته ،فرائة العطوي تعدّصورة غنية للمجتمع في العصر العباسي ، وتعكس معاناة فئة من فئاته وإحساس الشاعر العباسي _آنذاك_ بمسؤليته تجاه أبناء مجتمعه ومشاركتهم آلامهم وهمومهم .

قائمة المصادر والمراجع:-

1- الأصفهاني،أبو الفرج،الأغاني،دار الكتب المصرية ،القاهرة،1950
2- الحموي،ياقوت :معجم الأدباء، دار المستشرق، بيروت(د.ت)
3- الطبري ، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الطبري تاريخ الرسل والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل، دار المعارف ، القاهرة 1985
4-المعبيد ، محمد جبار : شعراء بصريون من القرن الثالث الهجري، مطبعة الإرشاد ، بغداد ، .1977
5- ابن المعتز: طبقات الشعراء ، تحقيق عبد الستار احمد فراج ، الطبقة الرابعة ، دار المعارف ، القاهرة .1981
6- الأصفهاني: الأغاني 123/23/ ابن خلكان: وفيات الأعيان، 39/6.